ملامح الدِّراسات النّصيّة في التراث البلاغيّ العربيّ

أ/ سعيدة سعدودي

جامعة امحمّد بوقرّة- بومرداس-

لطالما ضاهت البلاغة علم اللّغة الحديث، من حيث القضايا المتّصلة باللغة، والفكر والفصاحة وأشكال القول، وتكوينه من جوانبه المختلفة: الصوتية، والمعجمية، والنّحوية... لأنها شملت أيضا صور الفكر وأجناس الأدب، ومواقف البلغاء ومقاصدهم. وإن بدت ساذجة في نزعتها التقعيدية المعيارية الصارمة باعتبارها مجموعة من التّصورات والمفاهيم التّقنيّة المعياريّة، إلاّ أنّها تعتبر أحق العلوم الضاربة في التاريخ الحضاري باسم العلم؛ لاتساع ملاحظاتها ودقة تحليلها وتعريفها وقوة تصنيفها بقدر ما تمثله من دراسة منظمة لوسائل اللّغة التعبيرية؛ التي لا تعادلها أية دراسة أخرى معاصرة لها. ولا تكمن أهميتها في أنها تعكس تصورا معينا من اللّغة والأدب فحسب، بل إنّها تبلور فلسفة حية وتراثا ثقافيا يعكس النماذج الفكرية السّائدة.

لقد أفضت البلاغة إلى تحولات كبرى، تَمَخَّضَت عنها مناهج لسانية ونقدية اتسمت بحركة فكرية ثرية سواء من حيث التّصور أو التطبيق؛ والتي تجسدت في نظرية نصيّة عادت إرهاصاتها الأولى إلى علم البلاغة الكلاسيكية[1] وفن الخطابة؛ التي اهتمت بظواهر نصيّة تبحث في الصفات؛ التي يجب توافرها في الخطاب لكي يكون مقنعا [2]، ثم تحوّلت البلاغة شيئا فشيئا إلى علم الأسلوب[3]؛ الذي تطور بشكل مستقل عن البلاغة القديمة في القرن 19م؛ والذي عني هو الآخر بظواهر نصيّة تبحث عن أفضل طرق التعبير اللّساني، وعن مقاصد المتكلم وتحقيق شروط السِّياق. يقول فان ديك (Teun Van Dijk)" إنّ البلاغة هي السّابقة لعلم النّص إذا نحن أخذنا في الاعتبار توجُّهها العامِّ المتمثل في وصف النّصوص وتحديد وظائفها المتعدّدة "[4]، فالتحليل النّصي يتوقف في إجراءاته وعملياته على ما توفره البلاغة من القواعد اللازمة والدقيقة، وتوظيفها في إنتاج النّص الأدبي؛ الذي يتصل اتصالا مباشرا بالعناصر التي تتبعها من أجل التأثير والإقناع، فهدفها ينحصر في توفير تلك القواعد وإعداد النماذج التي يستطيع المتكلم/ الكاتب بمساعدتها تحقيق ما يصبو إليه من إقناع السامع، والقدرة على تحقيق إثارة الشيء الذي يدافع عنه[5] من ثم نرى أن علم النّص استفاد بضمه لتلك القواعد والنماذج التي وفرتها وأتاحتها البلاغة له من أدوات وإستراتيجيات[6].

وقد ذكر صلاح فضل عوامل التداخل بين البلاغة وعلم النّص بقوله :"بل لقد تطور الأمر إلى التوحيد بين علمي البلاغة والنّص إذ البلاغة هي الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلم النّص[7] فصلاح فضل لا يرى أنّ البلاغة هي الامتداد فحسب، بل وحّد بينهما لدرجة جعلهما كعلم واحد. وذهب الجرجاني قبله بآلاف السنين إلى أنّ الكلمة لا تكون مفيدة " إلاّ بضم كلمة إلى كلمة، وبناء

لفظة على لفظة هل يُتَصوَّر أن يكونَ بين اللفظتين تَفاضُلٌ في الدّلالة حتى تكونَ هذه أدلَّ على معناها الذي وَضعتْ له من صاحبتها على ما هيَ موسومةٌ به (...) وهل تَجد أحدًا يقولُ:" هذه لفظةٌ فصيحةٌ "، إلاّ وهو يعتبرُ مكانَها منَ النظم، وحسنَ مُلاءمةِ معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟.

وهل قالوا:" لفظةٌ متمكّنةٌ، ومقبولةٌ"، وفي خلافهِ:" قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاقِ بينَ هذه وتلك مِن جهةِ معناهُما، وبالقَلَقِ والنُّبوِّ عن سوء التَلاؤم، وأنَّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في مَعناها..." [8] ثم حلّل الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]. بقوله: فتَجلّى لك منها الإعجاز، وبَهَرَكَ الذي تَرى وتَسْمَعُ أَنك لم تَجد ما وَجَدْتَ منَ المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلاّ لأمر يَرجعُ إلى ارتباط هذه الكَلِم بعضِها ببعضٍ، وأن لم يَعرِضْ لها الحُسْنُ والشرفُ إلاّ مِنْ حيثُ لاقَتْ الأُولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريَها إلى آخِرها وأنَّ الفضلَ تناتَجَ ما بينها، وحصَل من مجموعها؟(...) ثم مقابلة " قيل " في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أَفَتَرى لشيءٍ من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجازِ روعةً (...) أم كلّ لما بينّ معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟" [9] فنجد أنّ مصطلح الاتساق (cohésion) قد تطرق إليه الجرجاني منذ القرن (4هـ)؛ والذي يعدّ أحد أهم مبادئ لسانسات النّص، والملاحظ من تحليله للآية القرآنية أنَّ الجرجاني يعالج نصا كاملا لا جملا منفردة أو كلمة مفردة، وهذا التحليل هو من صميم الدّراسات النَّصية الحديثة. ويقول في موضع آخر من كتاب " دلائل الإعجاز": " واعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصّبغ تتلاحق وينضمّ بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين. فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ولا تفضي له بالحذق(...) حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عدّة أبيات "[10]. فالجرجاني يرى أنّه لاّ يكون الحكم على الشعر بالحسن والجودة، وعلى صاحبه بالحذق والصنعة، إلاّ بعد تتبع القصيدة واستيفاء القطعة بكاملها وتلمس ما بين أجزائها من ترابط وتلاحق وانضمام بعضها إلى بعض[11].

ويرى محمد خطابي أنّ البحث في بنية النّص وقضايا تماسكه وانسجامه كانت موضع اهتمام أكثر من باحث لغوي قديم إلى درجة يمكن معها الكلام عن"علم نص عربي"، وإن كانت الدِّراسات في هذا الإطار موزّعة على ثلاثة مباحث: البلاغة والنقد الأدبي والتفسير. يقول في هذا الشّأن:" لماذا اتخذنا وجهة هذه المباحث؟ لأننا نؤمن . كما افترض ذلك الأستاذ أحمد المتوكّل(1982م) بأنّ النشاط اللّغوي العربي القديم ينقسم إلى " لسانيات الجملة "و" لسانيات الخطاب"(البلاغة، التفسير، أصول الفقه)؛ أي أن المباحث الأخيرة تواجه وحدة لغوية أكبر من الجملة " [12]. وقد عرض الخطابي بعض النماذج بيّن فيها أهمية أبحاث القدامى المتصلة بالترابط النّصي منها: حازم القرطاجني في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " من خلال دراسته لقصيدة المتنبي " أغالب فيك الشّوق والشّوق أغلب "؛ الذي درسها دراسة

نصية محللا العلاقة بين أجزائها، وهو القائل أثناء تحليله للقصيدة " فأمّا المتّصل العبارة والغرض فهو الذي يكون فيه لأخر الفصل بأوّل الفصل الذي يتلوه علقة من جهة الغرض وارتباط من جهة العبارة، بأن يكون أحد الألفاظ التي في أحد الفصلين يطلب من بعض الألفاظ التي في الأخر من جهة الإسناد والرّبط "[13]. كما نجد أن ابن طباطبا قد تطرق إلى قضية تماسك الخطاب الشّعري وترابط أجزائه بقوله:" وأحسن الشّعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل (...)، بل يجب أن تكون القصيدة كلّها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجًا وحسنًا وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقة معان وصواب(...) حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغًا (...) تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقًا بها مفتقرًا إليها " [14]. إنّ المتمعن فيما يقوله هذا الناقد يلاحظ كيف تجاوز علماؤنا القدامى في دراساتهم وتحليلاتهم حدود الجملة إلى الدِّراسة النَّصِّية الشّاملة لكل القصيدة أو النّص أو السورة القرآنية بكاملها. وكانوا ينظرون إلى القرآن الكريم بكامله كأنه كلمة واحدة. ولا يسعنا المقام لذكر نماذج أخرى من المفسرين (البلاغيين) بحيث كانت البلاغة تعتبر علما قرآنيا وقد عرفها يحي بن حمزة العلوي على أنها" علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز "[15]. فالنقاد القدمى تجاوزوا في تحليلاتهم حدود الجملة إلى تحليل أشمل، وأعمق للعمل الأدبي.

وذهب تمام حسان إلى أنّه لما ظهر الاتجاه البلاغيّ في دراسة المعنى وذلك " بمبادرة (...) عبد القاهر(...) بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود(...) قيمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السِّياق أو التركيب"[16]. ففي هذه الفقرة يشير تمام حسان إلى اهتمام الاتجاه البلاغيّ بالدِّراسات التي تتخطى الجملة إلى وحدة أكبر من ذلك وهي النّص بشموليته التي تحكمه جملة من المعايير تحقق له نصيته وتميزه عن اللانص ومن أهم هذه المبادئ: مبدأ "الاتساق"و"الانسجام".

1 . مفهوم الاتساق: (cohésion)

شهد هذا المصطلح ميلاده الفعلي من خلال أعمال"هاليداي" (M.A.K.Halliday) " ورقية حسن " (Rugaia Hassan) في مؤلفيهما (cohésion in English) الصادر عام 1976، والذي حاول فيه الباحثان تحديد ما يميز النّص باعتباره وحدة دلالية تداوية منسجمة، وليس مجرد متتالية من الجمل لا علاقة فيما بينها من ترابط والتحام؛ فالاتساق هو مجموع القرائن والأدوات اللّغوية المكونة للنّص، الذي تخضع جمله إلى عملية بناء منظمة ومترابطة تركيبيا ودلاليا، وكل جملة تؤدي إلى الجملة اللاحقة تتحقق بواسطة تلك الوسائل اللّغوية ويعرف هذا الترابط المنتظم بين الجمل بـ "الاتساق" وهو الذي يضمن للنّص تماسكه من خلال تلك " القواعد الشكلية التي تربط العناصر اللغوية بتدرج تصاعدي من أصغر وحدة لغوية إلى أكبر وحدة " [17] وتميزه عن اللانص. هذه الأدوات/القواعد . في الحقيقة . ناشئة من دراسات نحوية وبلاغية تجسدت أدواتها فيما يلي:

1 . 1 . الإحالة :

تعدّ من أهم الوسائل التي تحقق للنّص التحامه وتماسكه، وذلك بربط مختلف مقاطع النّص بعضها ببعض والإحالة نوعان: **إحالة مقامية**؛ فاللغة كثيرا ما تحيل إلى أشياء خارج النّص. **وإحالة نصّية**؛ وهي التي تحيل فيها بعض الوحدات اللّغوية على وحدات أخرى سابقة عنها أو لاحقة لها في النّص؛ أي إحالة قبلية وإحالة بعدية[18]، ويرى الباحثان السابق ذكرهما أن الإحالة المقامية تسهم في خلق النّص لكونها تربط اللّغة بسياق المقام إلاّ أنها لا تُسهم في اتساقه بشكل مباشر على عكس الإحالة النّصية فهي أكثر أهمية؛ لأنها تمثل أحد أهم الوسائل التي تسهم في الاتساق الدّاخلي للنّص. كما تكمن أهمية ظاهرة الإحالة في وجود بعض العناصر اللّغوية؛ التي لا تكتفي بذاتها في دلالتها مّما يجعل المضروري الرّجوع إلى ما تحيل إليه؛ لأجل تأويلها وبالتالي فهمها. هذه الوحدات هي ما أطلق عليها العلماء بـ " العناصر الإحالية " وهي ثلاثة: الضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأدوات المقارنة[19].

كما تعدّ الإحالة من الظواهر اللّغوية التي حظيت باهتمام اللغويين والبلاغيين ومفسِّري القرآن الكريم، ومن أجل ذلك اهتم علماء البلاغة والتفسير بدراسة الظواهر اللغوية ومن بينها الإحالة." وتفسير الكشاف" خير دليل على ذلك. حيث ذكر الزمخشري بصفته لغويا ومفسرًا مباحث في علم " المعاني" وعلم" البيان" تتضمّن على سبيل المثال أسرار التعبير باسم الإشارة، واسم الموصول، وأنواع الالتفات فيما يخص استعمال الضمير[20]؛ ثم استغل البلاغيون حديث النحاة في وجوب المطابقة في الضمائر وأقاموا حديثهم على الالتفات. وهو أسلوب يقصد به العدول من الغيبة إلى الخطاب ومنالخطاب إلى الغيبة.

. الرّجوع من الغيبة إلى الخطاب: كقوله تعالى: ﴿وَقَالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:88 –89]. ولو أراد الغيبة لقال: لقد جاءوا شيئا إدّا، وإنما عدل عنه إلى الخطاب لإيقاظ السّامع وتنشيطه.

. الرجوع من الخطاب إلى الغيبة : كقوله تعالي: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ في الفُلْكِ ﴾ [يونس: 22]. ثم قوله بعده ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس:22]، فالالتفات هنا يتم من خلال الانتقال من الخطاب إلى قوله " كنتم " إلى الغيبة في قوله "بهم[21]، وفيما يخص إحالة اسم الإشارة في البلاغة، فقد ذكر جلال الدين السيوطي في كتاب " عقود الجمان في علم المعاني والبيان" حديثا عن اسم الإشارة بيّن فيه أغراض استعماله وما يمكن أن يُحيل عليه. إما لقصد التعريض بالمخاطب أو لبيان المشار إليه(من حيث القرب أو البعد)، أو لقصد التحقير...[22]، ونجد أن العرب القدماء قد تنبهوا إلى الدّور الذي تقوم به الإحالة في الكشف عن المعاني في ربط أجزاء الخطاب.

" وأظهرت نظرية الحديث اهتمامها المتزايد بعملية التبليغ في ذاتها، وما تقتضيه من النظر في العناصر التي تقوم بدور أساسي في هذه العملية. أمّا فيما يخص تحليل النّص فهذه الاهتمامات هي بلا شك مفيدة فقد رأينا العلماء يعيرون اهتماما كبيرا لدور المتكلم وتصرفاته بحسب أغراضه وبمقتضى

الحال، وكذلك أحوال السّامع وغير ذلك مما له دور هام في عملية التخاطب. وأمّا الغربيون فلاحظوا هذه الظواهر وأقاموا بذلك نظرية متماسكة وثرية فمن ذلك تمييز رومان ياكبسون بين العناصر التي لا يمكن أن تدل إلاّ بالإحالة إلى حال الخطاب وذلك مثل: الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والظروف"[23].

1 . 2 . الاستبدال :

يعني الاستبدال تعويض عنصر بعنصر آخر في النّص، وهو صورة من صور التماسك النصي التي تتم في المستوى النحوي . المعجمي بين كلمات أو عبارات [24] مثل: سيارتي قديمة يجب أن أشتري **أخرى** جديدة. فكلمة "أخرى" عوضت كلمة " سيارة" وقامت مقامها؛ ممّا زاد في تعلّق الجملة الثانية بالأولى، وقد يتم الاستبدال على المستوى النحوي مثل: قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60]. حصل الاستبدال هنا بتعويض جملة بجملة أخرى بحيث عوضت جملة جواب الطلب " فضرب الحجر بعصاه " بجملة أخرى "فانفجرت ...." وترتبط هذه الجملة بالجملة المحذوفة بعلاقة سببية أشير إليها في السّابق؛ لذا يعد الاستبدال وسيلة أساسية يُعتمد في اتساق النص شأنه شأن الإحالة إلاّ أن الاستبدال يتم على المستويين النّحوي والمعجمي بين الكلمات/ العبارات، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدّلالي. والاستبدال ثلاثة أنواع : اسمي وفعلي وجملي.

1 . 3 . الحذف:

يعدّ أيضا من بين الظواهر التي تحقق الاتساق الدّاخلي للنصّ، ولا يختلف عن الاستبدال إلاّ في كون الحذف لا يحل محذوف محله على عكس الاستبدال الذي يترك أثرا بدلا عنه يسترشد من خلاله القارئ على ما ورد في السّابق(أي العلاقة بين الجمل) والحذف يشبه الاستبدال من حيث أقسامه، وهو أيضا ثلاثة أقسام: اسمي وفعلي وجملي(قولي)

. **الحذف الاسمي:** يعني حذف اسم داخل التركيب **مثل:** أي قبعة ستلبس؟ هذه هي الأحسن فقد حذفت **القبعة** في الجواب. وهو لا يقع إلاّ في الأسماء المشتركة.

. **الحذف الفعلي:** من **مثل:** فيما كنت تفكر ؟ المشكلة التي أرقتني. أي **أفكر**...

1 . 4 . الوصل :

يختلف هذا المظهر عن العلاقات الاتساقية السّابقة، في كون هذه المظاهر تحيل إلى سابق أو إلى لاحق في حين يصل الوصل مباشرة بين جملتين أو مقطعين. فالنّص عبارة عن جمل ومتتاليات متعاقبة خطيا، ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى أدوات رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النّص، تسمى بالأدوات المنطقية، لأنها تسهم في بناء النّص بناء منطقيا فقد يعني الوصل تارة معلومات مضافة إلى المعلومات السابقة، أو معلومات مغايرة للسابقة أو سببية وغير ذلك من المعاني[25]. والملاحظ على هذه الرّوابط أنها تتداخل في معانيها وتتجلى هذه الرّوابط على اعتبار أبعادها الدّلالية فيما يأتي:

- **روابط تفيد الإضافة** مثل:الواو، أو ، وأيضا، وبالإضافة.
- **ما يفيد الشّرح** مثل: لأن، بمعنى، بعبارة أخرى.
- **ما يفيد التعداد** مثل: أولا، ثانيا، أخيرا، في النهاية، بعد ذلك.
- **ما يفيد التوضيح** مثل: مثلا، خاصّة .
- **ما يفيد الرّبط العكسي** مثل: لكن، غير أن، عكس ذلك.
- **ما يفيد التمثيل** مثل: على غرار، مثل، نحو.
- **ما يفيد السّبب** مثل:إذا، وعليه، وفعلا، نتيجة ذلك، بناء على ذلك.
- **ما يفيد التعاقب الزّمني** مثل: قبل ذلك، بعد ذلك، ثم، إثر ذلك.

1 . 5 . الاتساق المعجمي:

يتمثل هذا المظهر في نوعين وهما: التكرار، والتضام.

أ . التكرار : يعد التكرار شكلا من أشكال الترابط المعجمي، ويتجسد من خلال إعادة عنصر معجمي أو مرادف له، أو شبه مرادف، أو عنصرا مطلقا، أو اسما عاما ومثال ذلك ما ذكره " هاليداي" و" رقية حسن" : اغسلي وانزعي نوى ست تفاحات، ضع التفاحات في صحن يقاوم النّار. فالتّرابط حصل بتكرار كلمة " **التفاحات** "[26].

أمّا عن التَّمَاسُكِ الذي يحصل بتكرار مرادف للكلمة **مثل:** شرعت في الصعود إلى القمة، التَّسَلقُ سهل للغاية. ويقصد بالأسماء العامّة أو المطلقة؛ التي تحوي إحالة معممة **مثل:** النّاس، الشّخص، المرأة، الطفل، الولد، البنت.....

ب . التضام: هو توارد زوج من الكلمات نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك، وقد تكون العلاقة علاقة تعارض **مثل:** ولد، بنت/ جلس، قعد ... وقد تكون علاقة الكلّ/الجزء، أو الجزء الكلّ[27]؛ إذًا فالاتساق هو ذلك التّمَاسُك الحاصل بين المفردات والجمل المكوِّنة للنصّ، ويأتي هذا التماسك من خلال وسائل لغويّة تصل بين العناصر المشكلة للنّص. وتحقق هذه الوسائل " **الاتساق** " على مستويين هما:

الاتساق
- **التركيبي:** يتحقق بواسطة الوصل وأدواته الرابطة المختلفة والأسماء الموصولة وحروف التفسير. **مقامية** [خارج النّص]
- **الدّلالي:** يتحقق بواسطة الإحالة **مقالية** [نصيّة] داخل النّص]

2 . مفهوم الانسجام: (cohérence)

الحديث عن الاتساق، يترتب عليه الكلام عن الانسجام فـ" في كثير من الأحيان يقع التداخل بينهما، وعادة ما يعبر عن الأوّل بالثاني"[28]. ومفهوم الاتساق جاء نتيجة لتطور مفهوم الانسجام؛ وقد

عني هذا المفهوم بمظاهر أخرى غير التي يحققها الاتساق، والتي أصبحت أدواته غير كافية بالإلمام بجميع الظواهر النّصيّة المختلفة، فإن اهتم الأوّل بدِّراسة العناصر المترابطة في النّص، ومحاولة رصد جميع تلك القرائن المساهمة في توفير الأدوات التي تربط أجزاء النّص بعضها ببعض؛ من وصل وعطف وتكرار وروده في أكثر من مقطع، وعلاقة الجزء والكلّ ... فإن الثاني اهتم بجوانب أعمق، تبحث عن العوامل الكفيلة بتحقيق هذا الترابط؛ لأنّه في كثير من الأحيان نجد نصوصا (جملا) تتصف بترابط شكلي شديد ولكنها لا تؤدي معنى؛ أي صحيحة نحوا وإعرابا، ولكن معناها غير مقبول منطقيا[29].

كما قد نصادف جملا(نصوصا) غير مترابطة الأجزاء ولكنها تؤدي معنى بذاتها؛ ولذا جعل " شارول" (Michel Charolles) مسألة الفصل بينهما أمرا لا جدوى منه [30]؛ لتكاملهما في تحديد القرائن وأدوات الرّبط بين أجزاء النّص ومقاطعه. فإذا كان **الاتساق** يهتم بالعلاقات الداخلية للنّصوص يأتي **الانسجام** ليتكفل بدراسة العلاقات الخارجية. إذ "لا يمكن أن نتصور نصا منسجما دون أن يكون متسقا، وبهذا المعنى يكون الاتساق شرطا ضروريا للانسجام[31]. فالنّص يحوي عناصر تكرارية تحقق له الاستمرارية، وذلك بتوفر وسائل تضمن له ذلك منها الضمائر المحالة والاستبدال... إلخ[32].

كما قد يتحقق الانسجام بغياب تلك القرائن(الأدوات) اللّغوية، وذلك من خلال علمية التأويل الذي يجريه المتلقي وبدون أن يتوسل إلى تلك الوسائط اللّغوية، وإنما يهتدي إلى المعنى عن طرق السياقات التي وردت فيها(المقام)، والمعارف التي اكتسبها (المتلقي) من عالمه الخارجي والخبرة الواسعة المستقاة من محيطه(أي الجانب التداولي) بمعنى أن القرائن اللّغوية تجسد حصول الانسجام من مستوى البنية الصغرى cohérence micro structurelle والمعطيات التداولية تحقق الانسجام على مستوى البنية الكبرى cohérence macro _ structurelle[33]. كما يمكن أن يتحقق الانسجام من خلال التكرار الوظيفي الذي يتسم بالفائدة فيكون ذا دلالة من حدوث التكرار، ويتأسس ذلك على مبدأ التدرج الموضوعاتي progression thématique[34] بحيث يستأنف الموضوع نفسه بأي صيغة كانت فلا يشعر المتلقي بتغير الموضوع من بداية النّص إلى غاية نهايته، وهناك حالات أخرى تتسم بمبدأ الاستمرارية تسمى بالقطيعة[35] والتي تتجسد في مظهرين هما:

- **الموضوع الشّامل** وإن كان الموضوع غائبا ذكرا ولكنه حاضرا فكرا، أي (دلاليا).
- **الموضوع الأشمل** والذي يحتاج فيه إلى مجهود كبير جدا؛ لأنّ التأويل لا يجري بطريقة سطحية، وإنما يحتاج إلى إجراء عمليات ذهنية معقدة وعميقة؛ بغية الوصول إلى معنى النّص ومقصدية الكاتب. وقد أوجد " ألبرتو إكوا " مبدأ التعاون أي المخاطب يقصد شيئا مهما يستحق اهتمام المخاطب[36].

ويرى " يول وبراون " (yule et Brown) أنّه لا يوجد نصّ منسجم وآخر غير منسجم بمعزل عن المتلقي، بل(المتلقي) هو من يحكم على نص ما بأنه منسجم، وعلى غيره بعدم الانسجام [37].

وانسجام الخطاب في نظر هذين الباحثين ليس شيئا معطى موجودا في الخطاب الذي ينبغي البحث عنه للعثور عليه(مجسداته) وإنما هو شيء يبنى، أي رغم انعدام القرائن والرّوابط الشّكلية يستطيع القارئ/المتلقي فهمها وتأويلها، وهي نصوص منسجمة رغم تفككها الظاهر [38]. ويمكن أن نوجز مظاهر الانسجام وأهم مبادئه في العناصر التالية :

2 . 1 . الترابط الموضوعي : ويعني ذلك أن النص يتحدث عن موضوع محدد ويعالج قضية معينة من بداية النّص إلى غاية نهايته، ومن العوامل المحققة لترابط النّص في نظر كلّ من " براون" و " يول " وحدته المعنوية[39].

2 . 2 . احتواء النّص على عنصر التدرّج (progression)؛ الذي من شأنه أن يجعل القارئ يشعر أنّ للنص مسارا معينا ويتجه نحو غاية محدّدة فيساعده على التفاعل مع النّص لدرجة استشعاره (توقعه) لما سيأتي بعد كلّ مرحلة من مراحله، وذلك عن طريق ظاهرتي " التكرار" و" التدرج ". ويرى فدومينيك (D Maingueneau) أن فهم دينامية النّص تقتضي طريقة يتحقق من خلالها تحويل المعلومات الجديدة إلى معلومات مكتسبة تمثل بدورها المنطلق نحو عناصر أخرى جديدة[40] فتسهم هاتين الظاهرتين في تحقيق مقصدية كاتبه.

2 . 3 . توفر النّص على معيار الاختتام : إنّ التدرج المنطقي المنظم، يستوجب أن يتكون النّص من مقدمة وخاتمه. فحسن التصرف في تنظيم المعلومات داخل النّص وحسن اختتامها تحقق حصافته وترابطه، وتساعد القارئ على إدراك غائيته بسهولة ووضوح يقول صلاح فضل:" تبرز أهمية المنظور اللّغوي الذي يمنحنا بعض المؤشرات الضرورية لتكوين فكرة واضحة عن النّص عموما قبل أن نتطرق إلى مشكلات النّص الفني والأدبي بتعقيداتهما النوعية وحينئذ نرى أن الخاصية الأولى لتحديد النّص هي الاكتمال، وليس الطول أو الحجم [41]. ويفهم من قول صلاح فضل أن العبرة من النّص لا تتوقف على مسألة الطول أو الحجم وإنما في حسن الاختتام والانتهاء إلى النتائج وحصول الفائدة ومن معايير النصيّة أيضا :

. أن يكون للنص نوع (Type)؛ الذي يُكسب النّص هوية(انتماء)، وتمنح القارئ القدرة على التمييز بين أنواع النّصوص، وهذا ما يساعده على احترام قواعد الكتابة والوقوف عند خصائص كل نوع فيحقق للنصّ المنجز حصافته وانسجامه.

إذا فالانسجام هو مجموع العمليات والآليات الظاهرة والخفية؛ التي تساعد قارئ خطاب/نص ما على فهمه وتأويله وذلك بمساهمة مجموعة من المبادئ تعمل على تحقيق الانسجام نوجزها فيما يلي:

. **مبدأ السّياق** : ويتمثل في العلاقة التي تربط النّص بقارئه، الذي يُمكّن المتكلم/الكاتب، والمستمع/القارئ من تحديد ظروف القضية، وزمانها ومكانها ويرى براون ويول(1983) أن للسياق دورا فعالا في تأويل الخطاب/النّص.

ويرى " هايمس "(Dell Hymes) (1964) أنّ السياق يؤدي دورا مزدوجًا، وحدد خصائصه في عدة نقاط منها: المرسل، المتلقي، الحضور (مستمعون آخرون)الموضوع، المقام (زمان ومكان الحدث التواصلي)، الإشارات، الإيماءات، تغيرات الوجه، القناة، النظام (اللغة أو اللهجة...) شكل الرسالة، جدال، عِضة ... المفتاح (تقويم المضمون)، الغرض"[42].

. **مبدأ التأويل المحلي**: ويتم بالتعرّف على موضوع النّص، والعلاقات والقرائن التي تربط بين عناصره التي تؤول بعضها بعضا انطلاقا من السِّياق[43].

. **مبدأ التشابه**: وذلك من خلال تشابه النّص مع نصوص أخرى، تتقارب في القضية المتناولة نتيجة لتراكم المعارف، واستخلاص الخصائص والمميزات من الخطابات بحيث تقود القارئ إلى فهم وتأويل النّص الذي بين يديه بناءً على الفهم والتأويل لتجاربه السّابقة على ضوء التشابه القائم بينهما.

. **مبدأ التغريض**:ويقصد به العنوان العام (الموضوع الرئيسي) الذي يتمحور حوله النّص. وهذه المبادئ تحكمها عمليات هي التي من شأنها المساهمة في بناء النّص وتحقيق انسجامه منها:

. **الخلفية المعرفية** : تتمثل في الرصد الذي يحمله المتلقي من معارف وتجارب تمكنه من التأويل والتفسير والتحليل، فالقارئ/المستمع لا ينطلق من العدم، بل يعتمد على تجاربه ومعارفه السّابقة.

. **الخلفية التنظيمية** : تتم من خلال تحديد مجال النّص، وجنسه ونمطه وخلفيته النظرية.

نستنتج من خلال ما سبق عرضه أنّ تلك الوسائل، والقرائن الاتساقية التي يتماسك بها النّص، وكذا المبادئ التي تحقق له استمراريته وانسجامه، لها تعلّق مباشر بمباحث البلاغة بحيث تطرق البلاغيون (ولاسيما الدِّراسات المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم وتفسيره) إلى تلك المبادئ والوسائل سواء بشكل ضمني أو صريح أثناء تحليل النّص القرآني، ومحاولة فهمه وتأويله. فتحدثوا عن أهمية أسباب النزول بمعناه العام في معرفة " السِّياق " الذي ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات، فمعرفة ذلك يعين على تصوير مقام الكلام وفهم المعنى، وأدركوا في وقت مبكر أن النّص القرآني وحدة كلية مترابطة الأجزاء تتابع الجمل فيه وفق نظام محكم بحيث تسهم كل جملة في فهم ما يليها كما تسهم المتقدمة في فهم المتأخرة .

إن فهم المعنى الإجمالي للقرآن الكريم لا يتحقق من خلال معاني الأجزاء فحسب، بل من خلال معاني الأجزاء وتآزرها في بنية كلية كبرى. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مسألة دراسة البنية الكلية للنّص مسألة قديمة قدم التفكير اللّغوي، غير أنّ خير من مهّد القول فيها . في تقديرنا . هم علماء التفسير والأصول وعلماء البلاغة؛ الذين كانت لهم في ذلك لفتات طريفة ونظرات عميقة لها صلة بقضايا معاصرة شغلت اللغويين والأدباء. من خلال تطلعهم من وراء ذلك إلى منهج يستشرف على دراسة اللّغة من خلال بُعْد أوسع انبثق على إثره مناهج لسانية ونقدية، وما استلهم من دراسات أسلوبية وسميائية وتداولية (أفعال الكلام) ولسانيات الخطاب/ النّص.

ملخص المقال باللغة الفرنسية:

Cette etude mise à preciser les relations entre la rhétorique arabe ,et la linguistique textuelle moderne,et la stylistique,puisque la rhétorique ne semble pas etre un champ scientifique strict dans ses lois et immobile, mais une science qui s'est intéressé à toutes questions liées à la langue, la pensée et l'éloquence, et les forms de discours et sa composition dans different aspects:phonétiques, grammaticales et lexicales…..

En consequence, nous allons examiner les points de vue des rhéteurs arabes ancienc et moderns, qui demontrent l'intéret de la structure du texte, et les questions de cohesions et d'harmonie, qui entre dans le domaine de la linguistique textuelle, pragmatique.

---

(1) ينظر: فولفجانج هانيه وديتر فيهقجر، مدخل إلى علم لغة النّص، ترجمة سعيد حسن بحيرى ، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2004، ص11.

2 . G. Siouffi, D. van raemdonck 100 Fiches pour comprendre la Linguistique, fiche 4: Linguistique et Rhétorique), Bréal rosny cedex, 2eme édition, 1999. ص14.

ينظر : Jean- Yves tadié, La critique Littéraire au 20 eme siècle, Belfond, 1987، ص207-202.

3 . ينظر: La critique littéraire aux 20 eme siècle،

ينظر: مرجع سابق، ص198. 4 Fiche pour comprendre la Linguistique, Fiche 100، مرجع سابق، ص15.

وللاطلاع أكثر ينظر: جان ايف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة د. قاسم مقداد، منشورات وزارة الثقافة، المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق، 1993، ص292. ينظر كذلك: فولفجانج هانيه مان ديتر فيهقجر، مدخل إلى علم لغة النّص، ترجمة سعيد حسن بحيري، مرجع سابق، ص11– 14.

(4) سعيد حسن بحيرى، علم لغة النّص المفاهيم والاتّجاهات، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، ط1، 1997، ص5– 6. ينظر كذلك: مدخل إلى علم لغة النّص، مرجع سابق، ص11– 14. وينظر كذلك: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، سلسلة عالم المعرفة، ع124، أغسطس 1992، الكويت، ص252 – 253

(5) ينظر: سعيد حسن بحيرى، علم لغة النّص المفاهيم والاتّجاهات، مرجع سابق، ص9.

(6أي اهتمامها بالعلاقة بين المرسل والمتلقي، والسياق بمختلف أنواعه اللّغوي والاجتماعي والثقافي.

(7) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، مرجع سابق، ص250 –253 .

(8)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص77– 78.

(9) المرجع نفسه، ص 78 – 79..

(10) المرجع نفسه ص 101 .

(11) ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه, منشورات الاختلاف، ط1, الجزائر، 1429 – 2008, ص 145.

(12) محمد خطابي، لسانيّات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء (المغرب)، 2006، ص95.

(13) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار المغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1981، ص290.

(14) ابن طباطبا، عيار الشعر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، ص131.

(15) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق إعجاز القرآن، المقتطف، القاهرة ج1، 1914، ص13

(16) تمام حسان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، مرجع سابق، ص18.

(17) مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية (مقاربة لسانية)، مجلة اللغة والأدب، ع12، الجزائر، ديسمبر 1997، ص431.

18 ينظر: محمد خطابي، لسانيات النّص، مرجع سابق، ص16 وما بعدها. ينظر أيضا: مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص303 وما بعدها.

(19) للاطلاع أكثر ينظر المراجع الآتية: محمد خطابي، لسانيات النّص، مرجع سابق، ص16–19. أحمد عفيفي، نحو النَّص اتجاه جديد في الدّرس النحوي، زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001، ص 116 وما بعدها. محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، مرجع سابق، ص82 وما بعدها. ينظر كذلك: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللّسانيّات النصيّة، دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب. فان دايك، علم النصّ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيرى، مرجع سابق، ص14، وص76 وما بعدها.

(20) ينظر: شريفة بلحوت، الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب" Cohesion in English" ل م. أ. ك هاليدي ورقية حسن، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، 2006/2005، ص36.

(21) ينظر: المرجع نفسه ، ص 46.

(22) ينظر: المرجع السابق، ص52.

(23)عبد الرحمن الحاج صالح، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية، مجلة المبرز، المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية، ع6، جويلية – ديسمبر– 1995، ص28.

(24) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النصّ، مرجع سابق، ص19. وينظر كذلك: أحمد عفيفي، نحو النص، مرجع سابق، ص122.

(25) ينظر: المرجع السابق، ص24.

(26) ينظر: أحمد عفيفي، نحو النّص، مرجع سابق، ص106.

(27) ينظر: محمد خطابي لسانيات النّص، مرجع سابق، ص25.

(28) مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية (مقاربة لسانية)، مجلة اللغة والأدب، مرجع سابق، ص430.

(29) وقد تطرق تشومسكي إلى مفهوم السلامة المعنوية كما تطرق قبله سيبويه إلى ذلك.

(30) وكثيرا ما يخلط بين مظاهر كل منهما وينسب علاقات الاتساق إلى الانسجام. حتى نشر هاليدي ورقية حسن كتابهما الموسوم بـ COHESION IN ENGLISH.سنة 1976.

(31) مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية (مقاربة لسانية)، مجلة اللغة والأدب، مرجع سابق، ص431.

(32) ينظر: الطاهر لوصيف، تعليمية النّصوص والأدب في مرحلة التعليم الثانوي، رسالة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص51.

(33) ينظر: المرجع السابق، ص52.

(34) ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(35) ينظر: مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص22. وما بعدها حيث عرض ثلاثة نظريات للانسجام وعلاقاته المتعددة بشكل مفصل وموسع.

(36) ينظر: المرجع نفسه، ص 54. ينظر كذلك: الطاهر لوصيف، تعليمية النّصوص والأدب في مرحلة التعليم الثانوي، مرجع سابق، ص53– 54.

(37) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النّص، مرجع سابق، ص51.

(38) ينظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(39) ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النّص، مرجع سابق، ص82.

(40) ينظر: المرجع نفسه، ص83.

(41) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، مرجع سابق، ص298.

(42) ينظر محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، مرجع سابق، ص52– 53.

(43) ينظر:المرجع نفسه، ص56.

المصادر والمراجع

1 ــ ابن طباطبا محمد بن أحمد الحسني العلوي، عيار الشعر ، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.

2 ــ الجرجاني عبا القاهر، دلائل الإعجاز، شرح وتعليق، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ط 1، 1424هـ / 2004م

3 ــ العلوي يحي بن حمزة ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق إعجاز القرآن، المقتطف، القاهرة ج1، القاهرة 1914.

4 ــ القرطاجني حازم بن محمد ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار المغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1981

5 ــ بحيري سعيد حسن ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية ط 1، لوتجمان، 1997.

6 ــ جان إيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة قاسم مقداد، منشورات وزارة الثقافة المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق 1993.

7 ــ حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء ط 1994.

8 ــ خطابي محمّد ، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2 ، المغرب 2006.

9 ــ ديك فان، علم النّص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيرى، دار القاهرة للكتاب ، ط1 1421 هـ / 2001م.

10 ــ الصبيحي محمد الأخضر ، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1 ، 1429 هـ / 2008م .

11 ــ عبد المجيد جميل، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة، دراسات أدبية، الهيئة المصرية للكتاب.

12 ــ عفيفي أحمد ، نحو النّص اتجاه جديد في الدّرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001 .

13 ــ فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النّص، سلسلة عالم المعرفة، ع124، أغسطس 1992، الكويت.

14 ــ هانيه فولفجانج وديتر فيهقجر، علم لغة النّص، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة ط 1 ، 2004.

المقالات والمجلات :

1 ــ بن عروس مفتاح ، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية (مقاربة لسانية) ، مجلة اللغة الأدب، العدد 12 ، الجزائر، ديسمبر 1997.

2 ــ الحاج صالح عبد الرحمن، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية ، مجلة المبرز، المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، العدد 6 ، 1995.

الرسائل والأطروحات :

1 ــ ينظر: شريفة بلحوت،الإحالة. الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب" Cohesion in English" ل م. أ. ك هاليدي ورقية حسن، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، 2006/2005،

2 ــ بن عروس مفتاح، مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في تخصص لسانيات النص، كلية الآداب واللّغات ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2008/2007.

المراجع باللغة الفرنسية :

1- Raemdonck don van et Siouffi Gilles , 100 Fiches pour Comprendre la linguistique Fiche 4 : linguistique et phétorique ,Bréal Rosny 2.

2- Tadie jean yves la Critique littéraire ou 20eme Siècle Belford 1987.